مؤرخهم يوسيفوس[1] فيقول[2] : «كان الأزواج يضمون زوجاتهم بحنان، ويحملون أطفالهم بين أذرعهم، ويتبادلون عناق الوداع والدموع تترقرق في مآقيهم، ولكنهم نفذوا في الوقت نفسه ما اعتزموا عمله كأنهم يعملون ذلك بأيد غريبة، وقد جعلوا عزاءهم لضرورة ما قاموا به تفكيرهم بالمصائب التي سيقاسونها فيما لو سقطوا بأيدي أعدائهم، وكانوا رجالاً تعساء حقيقة بسبب الضرورة التي وجدوا فيها، وهم الذين بدا لهم ذبح زوجاتهم وأولادهم وأطفالهم بأيديهم أهون الشرور التي تنتظرهم[2]. وبعد أن قتلوا نساءهم وأولادهم بأيديهم كان يتولى من عليه القرعة قتل رفيقه، وهكذا فعلوا حتى أبادوا أنفسهم بأيديهم.

ولئن كان هذا باعثاً للأسى البالغ فإن تبعة هذه الوحشية تقع على اليهود أنفسهم، فما كلفهم أحد بذلك، وتسويغ مؤرخهم من جنسهم النكراء تسويغ يهودي، فما كان الانتحار - أياً كان وبخاصة هذا النوع الوحشي البشع المخيف - سائغاً أو مقبولاً مهما كان الدافع إليه، وإذا بلغ بهم الإسراف في الوحشية والانتحار هذا الحد فلا غرابة إذا عاملوا غيرهم بأشد من هذا الإسراف.

---

(١) يوسيفوس مؤرخ اليهود الأكبر (٣٧ - ٩٥ م) كاهن وحاكم للجليل، وقد أسره فسباسيان سنة ٦٧ م فتكهن له بأن سيكون امبراطوراً لروما، فأبقاه، ولما تحقق ما تكهن به اصطحبه معه إلى روما وأكرمه، ولكنه كان شديد التعصب لدينه وقومه، وبالغ في مدحهم، ولم يكن يعنيه الصدق في تاريخه.

(٢) تاريخ سوريا، لفيليب حتي ١ : ٣٧٦